السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

Genetic Psychology and Innovation in Education Curricula

عبد العزيز خيرة¹¹ جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)، k.abdelaziz@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2023/11/15 تاريخ القبول: 2024/02/05 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص:

لقد حققت العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ نشأتها في العصر الحديث تطورات معرفية هائلة تجلت في بروز تخصصات علمية جديدة، لاسيما في مجال علم النفس من خلال فرع السيكولوجيا التكوينية التي أسهمت في التأسيس لمناهج تربوية جديدة تراعي سيكولوجيا الطفل في العملية التعليمية بدرجة أولى، لما في لذلك من انعكاسات إيجابية على الأداء التربوي والتعليمي في بناء فرد حرّ ومبدع وفاعل في مجتمعه من خلال تتبع النمو المعرفي للطفل، بتكييف نوعية المعارف بمراعاة المرحلة العمرية وطبيعة التفكير المرتبط بها بواسطة مناهج علمية تستجيب للتطورات العلمية المتسارعة في كافة مجالات العلوم والمعارف، كثورة على المناهج التربوية والتعليمية التقليدية التي تركز على التلقين لاهتمامها بأهداف التربية على حساب البحث عن الآليات والوسائل العلمية التي تحقق هذه الأهداف.

كلمات مفتاحية: مناهج، تربية، علم النفس، تعليم، علم الاجتماع.

Abstract:

Since their emergence in the Modern Era, Humanities and Social Sciences have achieved tremendous cognitive developments which manifested in the emersion of new scientific disciplines, especially in the field of psychology through Genetic Psychology that contributed to the establishment of new educational curricula. This new branch takes principally into account the child's psychology in the

عبد العزيز خيرة

educational process, due to its positive impacts on the educational performance. Therefore, that helps in building up a free, creative and active individual in his society by tracking the mental and cognitive development of the child. And that requires the adaptation of the knowledge quality taking into account the age and thinking nature, through scientific approaches that respond to the rapid scientific progress in all areas of science and knowledge. In fact, this progress is regarded as a revolution in the traditional educational curricula that focus on indoctrination since it interests in the education purposes instead of searching for mechanisms and scientific means that achieve these goals.

Keywords: Curricula, Education, Psychology, Teaching, Sociology.

*المؤلف المرسل: عبد العزيز خيرة

1. مقدمة

لاشكَّ أنّ التربية والتعليم من مستلزمات الحياة الإنسانية، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحتاج إلى تهذيب وتقويم لسلوكاته وأفعاله، وذلك من أجل تحقيق أهداف وغايات نفسية واجتماعية وأخلاقية وما إلى ذلك، ولا يمكن تحقيق ذلك بطريقة اعتباطية، وإنما يستدعي ذلك اعتماد مناهج علمية، لأنّها هي روح العملية التعليمية والتربوية، وفي نفس الوقت فهي تكشف عن مستوى التطور والتقدم في مجتمع معيّن قياساً بما يتحقّق من إنجازات علمية تسهم في تنميته.

وانطلاقاً من ذلك نجد أنّ هناك مراجعة دائمة ومستمرة للمناهج وطرائق التدريس قياساً بمتطلبات الواقع ودرجة التطور الحضاري في أمة ما، والدليل على ذلك ما مثله العصر الحديث والمعاصر من تحولات معرفية مهمّة أدت إلى الثورة على جميع المناهج الكلاسيكية ذات الطابع النظري المجرد، والمعارف الجاهزة والمطلقة وتفعيل المحاولات لتأسيس مناهج علمية جديدة تسير التطورات العلمية المتسارعة

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

والهائلة في كافة ميادين المعرفة، ومن أهمّ المجالات التي استحوذت على اهتمام العلماء والخبراء هو مجال التربية والتعليم لما له من تأثير مباشر على تنمية المجتمع وتطوره لاستثماره في تنمية الإنسان وطاقاته عن طريق التدريب والثقيف.

وفي هذا الصدد فقد تعرضت المناهج التربوية التقليدية التلقينية للنقد لاهتمامها بأهداف التربية وإهمالها للتقنيات التي تحقّق هذه الأهداف، خاصّة في ظلّ التقدّم الذي أحرزته العلوم الإنسانية منذ تأسيسها في العصر الحديث، بمحاولة تطوير مناهجها العلمية التي أصبحت تقوم على أساس الاختبار والتجريب.

وهذا ما مهد الطريق نحو بروز مناهج علمية جديدة في التربية، تجعل المتعلّم محور العملية التعليمية وفاعلاً فيها وليس منفعلاً عنها، خاصّة في ظلّ ازدهار الدراسات السيكولوجية والسيكو-سوسولوجيا وغيرها باعتماد الدراسة الاختبارية الميدانية في مجال البيداغوجيا.

وهذا ما كرّس له علماء الغرب بحوث كثيرة أمثال "روسو" 1712Rousseau و1778م و"برتراند راسل" 1872-1970م، وخاصة "جان بياجيه Piaget" 1896-1980م، ومنه يمكننا إثارة مجموعة من التساؤلات حول: كيف ساهمت السيكولوجيا التكوينية في تجديد المناهج التربوية؟ وكيف استطاعت التربية الحديثة تجاوز الأنماط المعرفية التلقينية الترددية إلى ابتكار أساليب تربوية إبداعية جديدة؟ وكيف أسهمت المناهج النشطة في هذا التحوّل المعرفي؟ وما أثر ذلك على تنمية المجتمع وتطوّره؟

2. مفهوم التربية والتعليم والمنهج:

إنّ لهذه المفاهيم الثلاثة علاقة وطيدة فلا يمكن أن نحصلّ تربية راقية وتنمية اجتماعية وحضارية دون تعليم جيّد تُصقل من خلاله القدرات والمهارات

عبد العزيز خيرة

وهذا بدوره يقتضي منهجية وطريقة علمية تمكّن من اكتساب المعارف والمهارات المطلوبة للمتعلم.

- إنّ للتربية مدلولات عدّة بحسب تعدّد وجهات النظر وآراء العلماء والمفكرين من أمثال علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأخلاق وما إلى ذلك، وإنّ كان هناك شبه إجماع وتلاقي في الآراء حول أنّ التربية هي "تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف" (مذكور، 1983، صفحة 42)، وبالتالي فهي التي تساهم في تنمية قدرات الإنسان ليلبغ مرحلة النضج والرشد من حيث هي "علم يبحث في أصول هذه التنمية ومناهجها وعوامله الأساسية وأهدافها الكبرى، وتعدّ التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها" (مذكور، 1983، الصفحات 42-43).

وهذا ما يؤدي إلى ضرورة مراعاة هذا النمو والتطور باعتبارها تأديب وتهذيب انطلاقاً من كونها "مسار يقوم على تطور وظيفة أو عدّة وظائف تطوّراً تدريجياً بالدربة، وعلى تجويدها وإتقانها" (لالاند، 2001، صفحة 322)، ممّا يستوجب طريقة في التعلّم تُعنى بصقل القدرات وتنميتها من خلال نموذج التعليم.

وانطلاقاً من ذلك فإنّ للتعليم أهمية كبرى كونه يعتنى بصقل القدرات وتنميتها بالكشف عنها وتفعيلها بالنظر لكون أنّ التعليم هو "التصميم المنظم المقصود للخبرة (الخبرات) التي تساعد المتعلّم على إنجاز التغيير المرغوب فيه العملية في الأداء...وهو عملية مقصودة ومخططة يقوم بها ويشرف عليها هيئة التدريس داخل المؤسسة التعليمية أو خارجها بقصد مساعدة المتعلمة على تحقيق أهداف ونواتج التعلّم المستهدفة" (العبيسي، 2021).

ومنه فالتعلّم كنشاط ذاتي يمكّن من اكتساب معارف وخبرات تدفع باتجاه تغيير وتطوير القدرات المختلفة للإنسان كنتاج لعملية التعليم التي لا يمكن أن

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

تحقق أهدافها التربوية إلاّ من خلال اعتماد منهج علمي تنتظم من خلاله التعليمية والتربوية.

- وعلى هذا الأساس لا بدّ من الوقوف على مفهوم المنهج بشكل عام من حيث أنّه كلمة كثيرة التداول في الكثير من المعاجم والموسوعات الفلسفية لما لها من أهمية في كلّ بحث علمي باعتباره "مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم بلوغ الحقائق المتوخاة مع إمكانية بيانها والتأكد من صحتها" (بغورة، 2001، صفحة 13).

وبالتالي فإنّ الغاية من اعتماد منهج علمي هو الكشف عن الحقيقة وفي هذا المعنى يعرفه عبد الرحمان بدوي بأنّه "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدّد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة" (بدوي، 1977، صفحة 5)، وعليه يعتبر المنهج العلمي هو الإطار العام للعمل من أجل التوصل إلى تحقيق التناسق بين المبادئ العقلية والتجريبية لذا فهو "تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية التي تؤلف بالضرورة البحث العلمي، أو تؤلف بنية العلوم الخاصّة" (قاسم، 1995، صفحة 85).

وعليه فإذا كان من الطبيعي وجود اختلاف على مستوى الموضوعات العلمية، فهي بذلك لا تخضع لمنهج واحد وإنّما لمناهج عديدة، على قاعدة طبيعة الموضوع هي التي تحدّد نوع المنهج المناسب للدراسة، وهذا ما فتح الباب أمام الدراسات في مجال العلوم الإنسانية باعتماد مناهج ملائمة تراعي خصوصية موضوعاتها ولاسيما في مجال علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك، ومدى تأثير ذلك على بحوث المناهج في مجال التربية والبيداغوجيا للوقوف على الأداء والكيفية التي يتمّ بها تحقيق الأهداف التربوية والتعليمية التي يتطلع إليها المجتمع.

عبد العزيز خيرة

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ صياغة المناهج التعليمية له ارتباط وثيق بثقافة وتطلعات المجتمعات في كلّ مرحلة تاريخية، وهذا ما يبرّره اختلاف المناهج التعليمية والتربوية من مرحلة إلى أخرى انعكاساً لمستوى التطور المعرفي والعلمي والغايات والأهداف المسطرة من طرف الهيئات المسؤولة على ذلك ومن هنا يمكننا التمييز بين نموذجين من المناهج التربوية والتعليمية يستجيب كلّ منهما لخصوصية المرحلة السائدة وثقافتها.

3. التربية التقليدية ومناهج التلقين:

إنّ المنهج هو محور العملية التعليمية ومحورها، فلا تعليم بلا منهج، إذ أنّ هذه العملية لها أهدافها وغاياتها المحدّدة من طرف هيئات عليا اجتماعية وسياسية، وانطلاقاً من أهمية موضوع التربية لارتباطه بالإنسان فقد استحوذ على اهتمام العلماء والمفكرين على مرّ العصور بالخوض فيه حسب التطلعات والأهداف المتسقة مع الأنماط الاجتماعية والفكرية السائدة في تلك المرحلة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد في فلسفة اليونان توجّه تربوي خاص اعتمد على "مناهج تسهم في إعداد الطفل للمستقبل لتحقيق أهداف تتسم بالثبات لأئنها - الأهداف التربوية- تعبّر عن حقائق مطلقة لا يمكن مناقشتها، فالمناهج عندهم تغاير طبيعة الطفل وتؤكد على أهمية العلوم والفنون، وما على الطفل سوى تعلمها - ولو باستخدام بغضّ النظر عن درجة صعوبتها أو مدى ملاءمتها ميول الطفل واهتماماته، لأنّ العلوم والفنون تستحقّ أن تُعلّم لذاتها" (برو و رحموني، 2015، صفحة 155).

وهذا مردّه لطبيعة الفكر اليوناني الذي كان يسعى إلى إدراك الحقائق المطلقة والمتعالية على الحاجات والرغبات الإنسانية التي كانت تعدّ في أدنى مستوياتها وضيعة لا ترقى لأن تُؤخذ بعين الاعتبار في اكتساب المعارف والفنون.

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

وفي هذا الصدد نجد أنّ هذا التقليد قد غلب على المناهج التربوية والتعليمية في المراحل التي تلت ذلك حتى العصر الحديث والمعاصر، حيث هُمش المتعلّم على حساب أهداف تربوية معدّة سلفاً لا تراعي رغبات وحاجات هذا الأخير، وبذلك أصبحت المناهج التربوية والتعليمية التقليدية تجعل وظيفة الهيئة التعليمية "تقتصر على تلقين المعارف واختبار مدى استيعابه من قبل التلاميذ وذلك بواسطة الحفظ والتسميع والتأكد من ذلك عن طريق الاختبارات" (ناجي و بن بريكة، 2023)، وبالتالي تصبح عملية التلقين هي الهدف والغاية على حساب تقويم وتقييم تلك المعارف من طرف المتعلم.

وعليه فإنّ مناهج التلقين تركز لدى المتعلّم الانصياع وتقبّل المعارف والآراء دون نقد وتمحيص أو تحليل، فيتحوّل هذا المتعلّم إلى مجرد آلة تقوم بالترديد والحفظ، فيغيب السؤال والبحث والتجريب "مما يضعف قدرة الفرد على الابتكار والإبداع والتجديد والتعلّم الذاتي، ويقوده إلى الاستسلام والقبول دون اعتراض، ويصبح العقل عاجزاً عن التحليل والمعرفة، ويتحوّل الفرد إلى كائن سهل التأقلم مع الواقع المفروض عليه، وسريع التكيّف مع ظروف القهر والسيطرة والاستغلال" (السورطي، 2009، صفحة 18).

وهذا ما ينعكس سلباً على أداء المجتمعات ومشاركتها في التطور العلمي والحضاري، لأن هذا المتعلّم يمثل وحدة أساسية في تركيبها، فتبقى مجرد كيانات استهلاكية وتابعة للأقوى منها، كون أنّ معيار التقدّم والتطور في أيّ مجتمع إنّما يقاس بمستوى التربية والتعليم فيه، وكذلك طبيعة المناهج المعتمدة ومدى قابليتها للتكيّف مع التحولات المعرفية والتحديات المفروضة عليها، فالاهتمام بالتربية هو بوصلة التقدّم.

4. دور السيكولوجيا التكوينية في تطوير المناهج التربوية:

عبد العزيز خيرة

انطلاقاً من الانعكاسات السلبية للتربية التقليدية ومناهج التلقين على الاكتشاف والإبداع من طرف المتعلمين، فقد كان هذا دافعاً للثورة على هذا النوع من المناهج خاصة في ظلّ الاهتمام المتزايد بمسألة التربية والتعليم في ضوء المناهج الحديثة تماشياً مع المتغيرات العلمية الجديدة، خاصة ذلك التحول المعرفي الذي حدث في تاريخ العلوم التجريبية وكذلك العلوم الإنسانية وبالأخصّ في مجال علم النفس وعلم الاجتماع.

وعلى هذا الأساس فقد أخذ البحث التربوي حيّزاً مهماً عند علماء الغرب منذ العصر الحديث، إذ حدثت تغيرات جذرية مهمة في نظريات التربية، وهنا نجد "برتراند راسل" يؤكد على أنّ كلّ من لوك Locke وروسو Rousseau كانا "رائدين عظيمين في ميدان التربية النظرية قبل القرن التاسع عشر، وقد استحقّ كلاهما الشهرة التي نالها لأنّ كليهما نبذا أخطاء كثيرة كانت شائعة حين كتبوا... فكلاهما مثلاً من أهل النزعة التي أدت إلى الحرية والديمقراطية" (راسل، دت، صفحة 19).

ومن هذا المنطلق فقد انتقد "برتراند راسل" نظريات التربية التي تقوم على التلقين ولا تعطي الحرية للمتعلم كي يبدي رأيه، وهذا ما دفعه إلى إثارة أسئلة مهمة وهي "هل علينا في التربية أن نرمي إلى حشو العقل بمعرفة لها فائدة عملية مباشرة، أو علينا أن نحاول تزويد تلاميذتنا بهبات عقلية صالحة في ذاتها" (لالاند ب.، دت، صفحة 24)، وذلك استجابة للتحديات المطروحة والتطورات العلمية المتسارعة إذ لا بدّ من مراعاة ذلك بالدفع باتجاه تنقيح طرائق التربية لتكون مسيرة لكلّ جديد في مجال العلوم المختلفة.

وتتطور مناهج العلوم الإنسانية وتعاون الاستمولوجيا مع علم النفس أدّ ذلك إلى الدعوة إلى تجديد مناهج البحث في مجال التربية من خلال محاولات تجديد الطرق والأساليب التربوية، بهدف التوصل إلى نماذج تعليمية وتربوية حديثة ناجحة، لذا نجد علماء التربية وعلماء النفس أمثال جان بياجيه Jean Piage الذين أخذوا

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

على عاتقهم إعادة التأسيس لرؤية تربوية جديدة هادفة تمكّن المتعلم من الانتقال من مرحلة التقليد والتلقين للمعارف إلى اكتشافها بنفسه، من أجل تكوين أفراد فاعلين إيجابيين يدفعون بمجتمعاتهم إلى النمو والتطور.

وقد أصبح "من الواضح أنّ التربية على الاكتشاف النشط للحقيقة هي أرقى من كلّ تربية تقتصر على ترويض الأشخاص بجعل إرادتهم تمتثل للإرادات الأخرى الجاهزة، وتقوم على حصر عملهم في نطاق الحقائق المقبولة لا أكثر" (بياجيه، 1986، الصفحات 27-28).

ومن ثمّ فإنّ الهدف من التربية هو إنشاء أفراد قادرين على تحقيق التكيف مع المحيط الاجتماعي وتحدياته، وذلك مشروطاً طبعاً بإعطاء الأولوية لاهتماماتهم وميولاتهم، والأهم من ذلك مراعاة درجة النمو العقلي في كل مرحلة، وهذا لا يتأتى إلا بتوظيف مناهج تعليمية خاصة تتجاوز النماذج التربوية التلقينية التي تهتمّ بالأهداف وتهمل الآليات التي بها تتجسد هذه الأهداف.

وهذا فيه دعوة صريحة لضرورة التحول من مناهج التلقين إلى المناهج النشطة، أو المدرسة النشطة خاصة في ظلّ ما حققته العلوم الاجتماعية والإنسانية من تطور متسارع في القرن العشرين معرفياً ومنهجياً لاسيما في مجال الإستمولوجيا التكوينية التي تهتم "بتوضيح المعرفة، والمعرفة العلمية بصفة خاصة، وذلك استناداً إلى تاريخها، وإلى تكوينها الاجتماعي sociogenesis وإلى الأصول السيكولوجية للأفكار والعمليات التي تعتمد عليها بصفة خاصة" (بياجيه، 2004، صفحة 35)، واستثمار ذلك المجال التربوي في الكشف عن مناهج تربوية ناجعة ومرنة تضع بعين الاعتبار دائماً محورية المتعلم في العملية التعليمية.

1.4 مفهوم المناهج النشطة:

إنّ الدعوة إلى تجديد الطرق التربوية باتجاه اعتماد المناهج النشطة طرح عدّة اعتراضات والتباسات خاصّة في بدايات القرن العشرين، وذلك بالاعتراض "على

عبد العزيز خيرة

اللجوء إلى النشاط الذاتي للتلاميذ بصورة ممنهجة" (بياجيه، 1986، صفحة 57)، وهنا يبدو جلياً التركيز على نشاط المتعلم وإعطائه الأهمية في العملية التعليمية وجعله محوراً لها، حيث أنّ المناهج النشطة تهدف إلى "تربية الانضباط الذاتي والمجهود الطوعي، خصوصاً إذا ما تمّ التوفيق بين العمل الفردي والعمل في فرق أو جماعات" (بياجيه، 1986، صفحة 57).

وعليه فإنّ تفعيل المناهج النشطة أصعب من المناهج التقليدية، لأنّه يشترط من المُدرّس كفاءة عالية وانتباه أكثر وهو ما يؤدي إلى حالة من الانسجام بين المتعلم والمتعلم، ومنه فإنّ التربية النشطة "تتطلب تكويناً أعمق بكثير وبدون الاطلاع الكافي على سيكولوجية الطفل (وكذلك على الاتجاهات المعاصرة لمواد الرياضيات والفيزياء) يسيء المدرس فهم المسالك العفوية للتلاميذ" (بياجيه، 1986، صفحة 57)، وكذلك يمكن التنبيه إلى أنّ المناهج النشطة هي مناهج إختبارية تنمي اهتمام المتعلم بالبحوث العلمية والتقنية انطلاقاً من الأطوار الأولى من التعليم، والتي تدفع به إلى امتلاك روح البحث والتقصي فيما يكتسبه من معارف.

2.4 علم النفس التكويني ومناهج التربية:

لقد أحدث التطور المعرفي الهائل في مجال العلوم بصفة عامة والعلوم الإنسانية بشكل خاص خلال القرن العشرين نقلة نوعية، أسهمت في إنشاء علاقات بينية بين العلوم، وذلك بالبحث عن التطور المعرفي لكل علم من حيث دراسة نمو المعارف العلمية من خلال استحداث حقل علمي خاص وهو الإستمولوجيا التكوينية التي تدرس "نمو المعارف العلمية بالاعتماد على تاريخها ونشاطها الحالي في علم معين من جهة، ومن جهة أخرى على مظهرها المنطقي، وعلى تشكيلها النفسي التكويني أي على علاقاتها بالبنيات الذهنية في تطورها" (بنعبد العالي، 1988، صفحة 55).

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

وفي هذا النطاق عمل بياجي على ربط الإبستمولوجيا التكوينية بتاريخ العلوم للاستفادة من معرفة كيفية النمو المعرفي وتطوره خلال السيرورة التاريخية لكل علم بالتوصل إلى تحديد منهج علمي تكون فيه الدراسة على مسافة قريبة من التحقق التجريبي الذي يهدف من خلاله الكشف عن القوانين التي من خلالها يتم تفسير العمليات العقلية العليا عند الإنسان بالاعتماد على علم نفس الطفل أو علم النفس التكويني الذي أصبح حقلاً تجريبياً لدراسة الظواهر النفسية والمعرفية عامة.

وعلى إثر ذلك فقد اعتمدت الدراسات في هذا المجال على المنهج السيكو-تكويني من خلال التجريب والاختبارات في الواقع، إذ موضوع الدراسة يتمحور حول النمو العقلي والمعرفي عند الطفل و كيفية تطوره في كل مرحلة للوصول إلى ما هو أنضج وأرقى إذ لا وجود لمعارف جاهزة وواضحة بذاتها، وهذا بالاعتماد على "علم النفس التكويني الذي يعتبر علم نفس الطفل أهم جوانبه والسيكولوجيا التكوينية هي دراسة نمو الوظائف العقلية من حيث إنّ هذا النمو يمكن أن يقدم تفسيراً، أو على الأقل معلومات تكميلية، فيما يتعلق بآلياتها في وضعها التام، وبعبارة أخرى، أنّ علم النفس التكويني يركز على استخدام علم نفس الطفل كوسيلة لحل مشاكل نفسية عامة" (بنعبد العالي، 1988، صفحة 56)

إنّ استحداث هذا المجال المعرفي أسهم بشكل كبير في الكشف عن مراحل النمو المعرفي عند الطفل الأمر الذي ساعد على صياغة برامج تعليمية تناسب كلّ مرحلة يتم من خلالها فهم هذا الكائن لا تجاوزه.

إنّ هذه الجهود فتحت الباب أمام التفكير الجاد في إعادة النظر في المناهج التعليمية التقليدية القائمة على التلقين من خلال قوالب جاهزة تستبعد المتعلم وتجعله مجرد كائن منفعل في العملية التعليمية لا فاعلاً فيها، من خلال بحث تجريبي واقعي يأخذ بعين الاعتبار التحولات المعرفية ويستفيد من ازدهار علم النفس

عبد العزيز خيرة

التكويني في التأسيس لمناهج جديدة في التربية تعطي الأولوية للملاحظة والاختبار في الكشف عن قدرات الطفل وصقلها بيداغوجيا.

وذلك من خلال إنشاء مدرسة تأخذ على عاتقها تحديد مهام المعلم والمتعلم، ولا يتأتى ذلك إلا بالإطلاع واستيعاب منجزات بحوث السيكلوجيا والسوسيلوجيا، لاسيما بعد ازدهار بحوث السيكلوجيا التكوينية التي تعتبر أنّ المعرفة "خلال تكوينها تمر في عدّة مستويات من التنظيم ويتم تسلسلها بحيث أنّ الطفل يحكم السيطرة على مستوى معين قبل الانتقال إلى مستوى آخر" (شربل، 1991، صفحة 194)، وهذا فيه مراعاة لاستيعاب الطفل للمعارف بما يتناسب وتكوينه الذهني والنفسي ونموه العقلي في كل مرحلة عكس مناهج التلقين التقليدية الموجهة التي تقدم المعارف في قوالب جاهزة دون الاهتمام بميوله وطاقاته الفكرية.

وبالتالي فإنّ الكشف عن البنيات العقلية والنفسية للطفل أسهم بشكل كبير في تطوير الأداء التربوي والتعليمي بممارسة النشاط الحرّ داخل ما يطلق عليه بالمدرسة النشطة التي تمكن الطفل من فعل ما يشاء ويرغب بدلاً من التحكم فيه وإعاقة قدراته في التعلم.

ومنه فإنّ "الفائدة الرئيسية لنظرية النمو العقلي في مجال التعليم، هي إتاحة الفرص أمام الطفل ليقوم بتعلم ذاتي، فإننا لا نستطيع تنمية ذكاء الطفل بالتكلم معه فقط، لا نستطيع أن نمارس التربية بشكل جيّد، دون أن نضع الطفل في موقف تعليمي، حيث يختبر بنفسه، ويرى ما يحصل، ويستخدم الرموز، ويضع الأسئلة، ويفتش عن إجاباته الخاصة" (سليم، 2002، صفحة 238)

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ التربية الحديثة تقوم على مناهج جديدة نشطة تنبع بالأساس من بحوث السيكلوجيا التكوينية، إذ أصبح التعليم نشط وممتع لأنّه يأخذ في الحسبان سيكلوجيا الطفل والسيكو-بيداغوجية مع تطور الرؤية العلمية

السيكولوجيا التكوينية والتجديد في مناهج التربية

للعلم الإنساني والاجتماعية بما ينسجم وتطور العلوم بشكل عام خاصة في ظلّ تطور الدراسات التجريبية الوضعية في هذا النطاق.

وذلك بالعمل على تغيير التصوّر التربوي التقليدي الذي يهدف إلى إنشاء أفراد متكيفون مع محيطهم الاجتماعي، إلى اعتماد مناهج جديدة نشطة تصبو لإعطاء مساحة واسعة للنشاط الحرّ والإبداعي للمتعلم من خلال السعي "لتيسير هذا التكيّف بتوظيف ميولات الطفولة نفسها، وكذا النشاط التلقائي الوثيق الصلة بالعمّ الذهني، مع الاعتقاد بأنّ المجتمع يغتني هكذا هو أيضاً، فلا يمكن أن نفهم التربية الجديدة إذن، طرقها وتطبيقاتها، إلاّ إذا اعتنينا بالتحليل المفصل لمبادئها وفحص صلاحياتها السيكولوجية" (بياجيه، 1986، صفحة 113)، وتتمركز هذه الرؤية دائماً حول البنية الفكرية للطفل وقوانين النمو المعرفي المرتبط بذلك، وهذا ما وفرته السيكولوجيا التكوينية التي تعدّ من أهم إنجازات علم النفس المعاصر، والدور البارز لجهود جان بياجيه في التحوّل المعرفي لمناهج التربية.

5. خاتمة:

نصل إلى أنّ البحوث في مجال مناهج التربية تحتاج إلى تجديد مستمر قياساً بالتطورات المتسارعة في جميع المجالات العلمية والاجتماعية والسياسية، لتكييف هذه المناهج مع حاجات ورغبات المتعلمين بالدرجة الأولى وفقاً لأهداف وغايات تربوية وحضارية، بتجاوز كلّ أشكال التريديد والتلقين وإعطاء الفرصة للكشف عن الطاقات والإمكانات التي يتميز بها كلّ فرد عن الآخر.

ولا يتأتى ذلك إلاّ من خلال الكشف عن مناهج جديدة في التربية تتناغم والتحوّلات المعرفية والاجتماعية المعاصرة، وتجعل من المتعلم محور العملية التعليمية، وهذا ما كان محلّ انشغال المتخصّصين في التربية وعلماء النفس والاجتماع بالتفكير في التنظير والعمل على تجسيد المدرسة النشطة، ولعلّ أبرزهم في

عبد العزيز خيرة

هذا المجال هو جان بياجيه الذي أولى اهتماما بالغاً للبيداغوجيا من خلال تكثيف بحوث السيكولوجيا .

ولعلّ الوقوف على سيكولوجيا الطفل بمعرفة قوانين النمو المعرفي والبنيات العقلية والنفسية يسهم بصورة كبيرة في تحرير طاقات الطفل، بدفعه إلى اكتشاف نشاطه الذاتي النابع من حاجاته واهتماماته، وهذا ما ينمي فيه التفكير الحر الإبداعي الذي يمكنه من التفاعل الإيجابي مع ذاته ومع غيره، كفاعل إيجابي ومحوري في النشاط التربوي على أساس الملاحظة والتجارب والاختبارات لتجديد المناهج التعليمية مفاهيمياً وتطبيقياً،

ومن هذا المنطلق فقد شكّل ذلك صلب بحث السيكولوجيا التكوينية مع بياجيه لتجديد المناهج التربوية بما يتناسب وقوانين النمو العقلي للطفل، وبالفعل فقد أثمر ذلك نتائج إيجابية في التأسيس للمدرسة الحديثة بمناهج تعليمية مرنة تأخذ بعين الاعتبار كل التحدّيات والمستجدات من أجل بناء إنسان حرّ ومبدع، ولعلّ الغرب قطع أشواطاً في هذا المضمار، الأمر الذي استطاع معه تحقيق التنمية والتقدم لمجتمعاته.

إنّ هذا النموذج التربوي المعرفي يمكن الاعتماد عليه في استلهام مناهج تربوية تتوافق والخصوصية الثقافية والأخلاقية للنهوض بمجتمعاتنا العربية والإسلامية للخروج من وضعية التخلف والتردي في جميع المجالات بالعمل على الاهتمام بالإنسان أولاً - الطفل - الذي يعدّ أساس التقدم والتطور الحضاري.

6. قائمة المراجع:

- مذكور إبراهيم. (1983). المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- بغورة الزواوي. (2001). المنهج البنوي. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- لالاند أندري. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تر: خليل أحمد خليل، ط2. بيروت، باريس: منشورات عويدات.
- راسل برتراند. (دت). في التربية تر: سمير عبده. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- تمار ناجي، و بن بريكة عبد الرحمان. (2023). المناهج التعليمية والتقويم التربوي. تاريخ الاسترداد 17 04 2023، من الدراسة الجزائرية: <https://eddirassa.com>
- بياجيه جان. (2004). الإيستمولوجيا التكوينية، تر: السيد نفادي. دمشق: دار التكوين.
- بياجيه جان. (1986). علم النفس وفن التربية، تر: محمد بودوزي. الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر.
- بدوي عبد الرحمان. (1977). مناهج البحث العلمي، ط3. الكويت: وكالة المطبوعات.
- بنعيد العالي عبد السلام. (1988). درس الإيستيمولوجيا (الإصدار ط2). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- العبيسي قادر أبو كرم. (16 02 2021). إستراتيجيات التعليم والتعلم والتقويم، مشروع التأسيس للجودة والتأهل للاعتماد المؤسسي والبرامجي. تاريخ الاسترداد 15 04 2023
- برو محمد، ورحموني دليلة. (2015). المناهج التعليمية بين التطورات وتحديات المستقبل. مجلة الممارسات اللغوية، المجلد 6 (01)، 151-186.
- قاسم محمد. (1995). كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- سليم مريم. (2002). علم تكوين المعرفة، ط 1. بيروت: دار النهضة العربية.
- شيرل موريس. (1991). التطور المعرفي عند جان بياجيه (الإصدار الطبعة الثانية). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

عبد العزيز خيرة

السورطي يزيد عيسى. (2009). *السلطوية في التربية العربية*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.